ملخص كتاب

تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر

تأليف د. نفوسة زكريا (ت 1989م)

أستاذ الأدب الحديث بجامعة الإسكندرية

مع زيادات عليه في الحاشية

عبد الله بن سعود آل معدي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص كتاب

تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر

تأليف

د. نفّوسة زكريا (ت ١٩٨٩م)

أستاذ الأدب الحديث بجامعة الإسكندرية

[مع زيادات عليه في الحاشية]

تلخيص:

عبدالله بن سعود آل معدي

تاريخ الدعوة للعامية في مصر

لما كانت الشكوى من صعوبة العربية الفصحى التي يرددها كثير من أبنائها في كل مكان وبغير انقطاع، كان هذا التتبع للمصدر الأصلي لهذه الشكوى؛ لأن الشكوى لم تكن وليدة اليوم، وإنما يرجع تاريخها لأكثر من مئة عام، فلذلك قامت الدكتورة: نفّوسة زكريا (أستاذ الأدب الحديث بجامعة الإسكندرية، والمتوفاة سنة ١٩٨٩م) وتتبعت تاريخها في كتابها (تاريخ الدعوة للعامية وآثارها في مصر)، ورصدت نوايا الأصحاب الأصليين لهذه الشكوى من المستشرقين والمستعمرين الذين كانوا يأملون تحقيق أهدافهم من خلالها، من أهمها: إحلال العامية مكان الفصحى.[1]

وفيما يلي ملخص هذا الكتاب المهم:

اهتمام الأجانب بالعامية والمؤلفات الأجنبية التي تناولت دراسة اللهجة المصرية:

اهتم الأجانب بدراسة العامية منذ القرن التاسع عشر، وكان لذلك الاهتمام مظاهر أبرزها:

إدخال الغرب اللهجات العربية المحلية في مدارسهم وجامعاتهم بهدف القضاء على الفصحى وإحلال العامية محل الفصحى في الوطن العربي، بل وخصصوا للهجات الشرقية مدارس ومعاهد، وأول ما كان ذلك في إيطاليا سنة ١٧٢٧م، ثم النمسا ١٧٥٤م، ثم فرنسا ١٧٥٩م، ثم إنجلترا أوائل ١٨٠٠م، ثم روسيا ١٨١٤م، ثم ألمانيا والمجر ١٨٩١م!

وقام بتدريس العامية فيها شرقيّون مثل: (أحمد فارس الشدياق)، ومستشرقون آخرون استعان بهم الغرب.

---

[1] بدأت الدعوة إلى العامية مع بداية الحملات الصليبية على بلاد المسلمين، حين تبين لهم أن إسقاط تلك البلاد لا يكون إلا إذا سقط الإسلام، وأنه سر وحدتهم وقوتهم، الذي منه يستمدون القدرة على المقاومة، ولما كان القرآن الكريم هو المشرع للإسلام، وملايين المسلمين في كل بقاع الأرض يقرؤونه ويقدسون لغته العربية، وجب على أعداء الإسلام أن يسقطوا ذلك القرآن؛ ولذا أرسلوا عليه الحملات الحملة تلو الأخرى؛ واحدة تتناول أسلوب القرآن بالنقد والتقبيح، وأخرى تتناول لغته من ناحية القواعد اللغوية والنحوية، وأخرى تتناول قصصه وتزعم أنها أساطير، وأخرى تتناول جمعه وتفسيره، وأخرى تتناول ما فيه من تشريع، وأخرى تتناول قراءته وتدريسه، وهكذا إلى ما لا يعد ولا يحصى من الحملات عليه. (انظر: الزحف على القرآن، أحمد عبدالغفور: ص٣٤)

كما استعان الأوروبيون بمن يعملون في بلادهم من المصريين والسوريين الذين عاشوا في مصر للتأليف في اللهجة المصرية، فألّف العرب -وللأسف- مؤلفات عربية في العامية بإيعازهم، مثل: كتاب (أحسن النخب في معرفة لسان العرب) للطنطاوي، وكانت مقدمته فرنسية، وكتاب (الرسالة التامة في كلام العامة) للصبّاغ.

أما المؤلفات الأجنبية في العامية فمعظم مؤلفيها عاشوا في مصر فترة من الزمن، وتولوا فيها مناصب عالية، ومن تلك المؤلفات:

- كتاب (قواعد العربية العامية في مصر) لـ (ويلهم سبيتا) الألماني، وهو مدير دار الكتب المصرية، وقد ألّف كتابه سنة ١٨٨٠م باللغة الألمانية، ومن هذا الكتاب انبعثت الشكوى من العربية الفصحى وصعوبتها، وخرج من هذا الكتاب أول اقتراح لتحويل بعض الحروف العربية إلى اللاتينية، وهو الذي خلق مشاكلنا اللغوية التي استنفدت جهدنا ووقتنا في العصر الحاضر.

  وعاش مؤلفه في حيٍّ شعبيٍّ في القاهرة زمناً؛ رغبة في تدوين العامية من أفواه العامّة من الناس الذين يخالطهم ويلتقي بهم، وكان لا يدوّن إلا ما يسمعه بأذنه على كُمِّ قميصه، لئلا يلاحظه المتكلم فيفقد سجيته وحريته في الكلام، وهدفه تدوين العامية الطبيعية وجعلها لغة أدبية ذات قواعد وأسس. وكان يندد بصعوبة الفصحى ويتنبأ بموتها كما ماتت اللاتينية، فمات هو وبقيت الفصحى، وستبقى ما بقي القرآن -بإذن الله-.[1]
- كتاب (اللهجة العربية الحديثة في مصر) لـ (كارل فولرس) الألماني، وهدفه كتابة العامية بالحروف اللاتينية، وترجمه للإنجليزية سنة ١٨٩٥م.
- كتاب (اللهجة العربية المحكية في مصر) لـ (ولمور) القاضي الإنجليزي في المحاكم الأهلية بمصر، والذي وفد إليها أوائل عهد الاحتلال، وهدفه كتابة العامية بحروف لاتينية واتخاذها لغة أدبية، وله أهداف أبعد من ذلك تجتمع مع أهداف الاستعمار الإنجليزي

---

[1] إن قبول الدعوة إلى العامية سيفضي إلى شر جسيم ووبال عظيم؛ إذ سيفضي بنا إلى ترجمة القرآن نفسه بالعامية، كما زعم ذلك أحد أنصار تلك الدعوة -وهو لويس عوض- متحدثا عن رفض الناس لهذه الدعوة؛ (لأن استخدام اللغة المصرية كأداة للكتابة قد ينتهي بعد قرن أو قرنين إلى ترجمة القرآن إلى اللغة المصرية بهذه البساطة، كما حدث للإنجيل). (انظر: أباطيل وأسمار، محمود شاكر (١/ ١١٧)).

كفصل المسلمين والعرب عن ماضيهم وتفتيت وحدتهم اللغوية بالقضاء على الفصحى.كما أنه ردد الشكوى من صعوبة الفصحى، وخوّف المصريين من أنّ معارضتهم للعامية سيجعل لغة الاحتلال الإنجليزي تحل بدلاً عنها، فالأولى أن تحل العامية مكان الفصحى لا الإنجليزية، هكذا أراد! واقترح كذلك أن يكون التعليم إجبارياً بالعامية وحدده بمدة سنتين. والعجيب أن من ساهم في طباعة هذا الكتاب رؤساء بعض المؤسسات المصرية!

- كتاب (المقتضب في عربية مصر) لـ (باول) القاضي الإنجليزي في مصر.

كانت هذه أشهر الكتب التي حاربت الفصحى في مصر، وما إن ترى مصدرها فإنك تعرف مغزاها.

ولما قام الأجانب بدعوتهم للعامية لم يجدوا أصلاً يستندون عليه لاتخاذها لغة أدبية، فاتخذوا من أدب العامة من الأزجال والمواويل والقصص أصلاً لذلك!

وفي سنة ١٨٨٣هـ وفد إلى مصر مهندس ري إنجليزي اسمه (وليم ولكوكس) في أول عهد الاحتلال البريطاني لمصر، وألقى محاضرة في الأوزبكية ادعى فيها أن أهم عائق يمنع المصريين من الاختراع هو الفصحى، وقد نشر هذه المحاضرة باللغة العربية الركيكة في مجلة الأزهر بعد أن آل إليه أمرها، ونصح فيها بنبذ الفصحى واتخاذ العامية للتعبير بدلاً عنها، اقتداءً بالإنجليز. وقد عاش من أجل هدفه مدة ٤٠ سنة في مصر! وله رسالة أخرى لنفس الهدف نشرها سنة ١٩٢٦م.

وكان من محاولاته أن ترجم قطعاً من روايات شكسبير للعامية المصرية، ومع ذلك لم يجد فيها من العبارات التي تسعفه لنقل أفكار شكسبير فاضطر للفصحى! وكذلك فعل مع الإنجيل، ومع ذلك لجأ للفصحى مرة أخرى!

وممن نادى بضبط العامية – من غير الأجانب –: رفاعة الطهطاوي، فقد دعا للتصنيف بها فيما يتعلق بمصالح الناس أو للتفكّه، وذلك بعد تمهيد طويل أشاد فيه بالفصحى.

الصحافة المصرية ودعوة الأجانب للعامية:

تأثرت الصحف بهذه الدعوات الأجنبية للعامية، فأيدت مجلة المقتطف دعوة (سبيتا).

أما مجلة الأزهر فرغم أنها مجلة (ولكوكس) وهي من نشرت محاضرته، إلا أنهم ردوا عليه فيها، فيئِس من دعوته وأغلق مجلته!

أما مجلة الهلال فقد ردت على مزاعم هؤلاء التي منها: أن مصر ليست عربية أصلاً بل فرعونية ولغتها (البونية)، ومنها: أن يكون التعليم بالعامية إجبارياً! فانظر كيف يهاجمون اللغة العربية الفصحى رغم أنهم يحامون عن لغتهم في بلادهم فلا يسمحون في التعليم بغير الإنجليزية، ولا يجيزون تعلم لغة أخرى حتى يتمكن الطالب من لغته، ولا يغفرون استعمال لغة غير لغتهم في أي مصلحة من مصالحهم!

استغلال دعاة العامية لحركات الإصلاح:

وقد وجدت الدعوة للعامية عدة منافذ دخلت من خلالها على الفصحى، من ذلك:

دخولها من خلال حركة تسمى: (**التجديد في الأدب العربي**) حيث نادى دعاة التجديد هؤلاء بقطع كل صلة بالقديم، فاستغل الأجانب هذه الثغرة في صالحهم.

ومن دعاة التجديد: سلامة موسى، الذي ضمّن كتابه (الأدب للشعب ١٩٥٦م) كل ما يراه من أفكار للقضاء على الأدب القديم، ووجه حملاته للأدباء الذين نهجوا نهج القدامى، وكرسوا جهدهم لدراسة الأدب القديم كأحمد شوقي والعقاد والرافعي، وبطّن حملته بالحميّة الوطنية واتخذها ذريعة لتحطيم قواعد العربية.

وهو يرى أن يتجه الأدب الجديد وجهة غربية حيث النور والحضارة، فيقول: "في وقتنا الحاضر في مصر والأقطار العربية يجب أن يكون الأدب كفاحاً نحارب به رواسب القرون المظلمة.. وندعو فيه إلى الحضارة العصرية، أي حضارة أوروبا، إذ نحن على يقين بأنه إذا كانت الشمس تشرق من الشرق فإن النور يأتي إلينا من الغرب"!

واستطراداً .. فإن سلامة موسى كان يقول حاقداً على الفصحى داعياً إلى العامية: "الأدباء الأوروبيين لا يكتبون في الخواء، إنما يعالجون المشكلات الاجتماعية الإنسانية، وهم يكتبون للشعب بلغة الشعب!". وكان يستشهد بمقولة قاسم أمين قبل ٣٠ سنة: (إن الأوروبي يقرأ ليفهم، أما نحن فنفهم لنقرأ)! يعني أنك لن تستطيع القراءة بالفصحى والاستمتاع بها لصعوبتها حتى تفهم مصطلحاتها وتعابيرها قبل ذلك!

كما اقترح إلغاء الإعراب وتسكين أواخر الكلمات! وتجده لا يسمي أحياناً العامية باسمها بل يضفي عليها ما يحسّنها في العيون، فيقول: اللغة الديمقراطية أو اللغة الميسرة!

ومن الحركات التي استُغلت أيضاً (**دعوة التمصير**) أواخر القرن التاسع عشر (وهي حركة تدعو لتكريس الجهود والعمل الدؤوب لخدمة مصر فقط ولا تتعدا حدودها الجغرافية، والسعي لتمييزها عن غيرها) ومن هنا نشأت حركة تمصير الأدب بمختلف أنواعه كالرسم والموسيقى، ومن ذلك تمصير اللغة العربية الفصحى، واقترح أحدهم (وهو أحمد لطفي السيد) وضع قواعد معينة لإحلال لغة سكان القاهرة مثلاً بدلاً عن الفصحى، واقترح بعض المصطلحات المصرية لخدمة ذلك كـ(البسكليت والجاكتّة والجزمة والبنطلون...) والتي تلوكها ألسن العوام!

وقد عارضه الرافعي –رحمه الله–، كما أيده آخرون يرون ذلك خطوة لتأسيس أدب مصري خاص بالدولة! وقد شارك السيّد في فكرته آخرون كمحمد تيمور وغيره.

كما اقترنت الدعوة للعامية بما يسمى (**حركة تيسير نحو العربية وكتابتها**)، فمثلاً أحد شيوخ مجمع اللغة العربية (وهو عبدالعزيز فهمي) قدم اقتراحاً للمجمع سنة ١٩٤٣م بشأن تيسير الكتابة العربية، ودعا فيه إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية! متذرعاً بصعوبة الفصحى وزاعماً تذليلها، وقد حوت مقدمة بحثه رغبةً في إقصاء الفصحى، وأسفاً لعدم تمكن اللهجات المحلية من احتلال مكانها!

هل أثرت الدعوة للعامية في الدراسات اللغوية:

نعم، فقد خرجت مؤلفات تناولت دراسة العامية أُلّف بعضها استجابة لرغبة أجنبية، كما كان من حفني ناصف وإن كانت استجابته علمية فقط وليست أبعد من ذلك، ومن مؤلفاته: (مميزات لغات العرب وتخريج ما يمكن من اللغة العامية عليها وفائدة علم التاريخ من ذلك) قدمه لجمعية العلوم الشرقية في (ويانا) سنة ١٨٨٦م، استجابةً لاقتراح الدكتور (مرتين هرتمن) أستاذ اللغات في برلين بألمانيا، وقد حاول المؤلف فيه إرجاع اللغات العامية إلى أصولها من لغات العرب.

ومن الكتب التي أُلّفت بإيعاز أجنبي: (التحفة الوفائية في تبيين اللغة العامية المصرية) لـ وفاء القوني، استجابة منه لرغبة رئيسه (كارل فولرس) أمين الكتبخانية الخديوية المصرية سابقاً،

والكتاب عبارة عن قاموس للغة العامية المصرية؛ مما يدل على استغلال الأجانب لمناصبهم في هدم الفصحى مستعينين بمن تحتهم!

كما خرجت مؤلفات تناولت البحث في أصول الكلمات العامية، وخصائص العامية، والتقريب بين العامية والفصحى، ومن ذلك بحث (محمد فريد) عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة بعنوان: (موقف اللغة العربية العامية من اللغة العربية الفصحى) سنة ١٩٧٤م، حيث وصف الفصحى بالجمود الذي باعد بينها وبين العامية المتجددة، ونادى بالتقريب بينهما!

ولما اتهم دعاة العامية الفصحى بالصعوبة والجمود حاول الباحثون -متأثرين بهذه التهم- تيسير الفصحى وإمدادها بما تتطلبه الحضارة الحديثة، وكان هدفهم خدمة الفصحى لكن بعضهم جاوز الحد فخرجوا عن سَنن العربية وشوهوها، فمن ذلك:

موضوع تيسير النحو، فبدأ بعضهم (وهم الفريق الأول) ومن ضمنهم (حِفني ناصف) بتعديل المناهج والاكتفاء ببعض القواعد والبعد عن التفصيلات وقد أقرت ذلك وزارة المعارف، وقلده في ذلك (علي الجارم ومصطفى أمين) في كتابيهما (النحو الواضح) المقرر في المدارس آنذاك.

وهذه الآراء كما نرى لا تمس جوهر النحو.

أما (الفريق الثاني) فيرى أن الصعوبة في النحو نفسه، وحتى يُذَلّل لابد من تغيير وتبديل قواعده، ناسياً أو متجاهلاً مصير لغة القرآن والحديث والتراث. وتتلخص آراء هذا الفريق في:

إلغاء الإعراب وتسكين أواخر الكلمات، وحذف بعض قواعد النحو، وإيثار كل لهجة عربية توافق العامية[1].

ومصدر الشكوى من صعوبة الفصحى ترجع للمستشرقين والمستعمرين الذين كانوا يرون أن من سبل القضاء على وحدة العرب والمسلمين السيطرة على لغتهم، وإبدال لغة المستوطن بلغة

---

[1] وقد رد العلماء على دعاة إلغاء الإعراب من وجوه، منها: أن الإعراب كاملا موجود في بعض اللغات السامية، وأن اللغة لو كانت مصنوعة مفروضة على الناس لما قبلوها؛ إذ لا يتصور أن يكون للنحاة هذه السطوة على الناس حتى يلزموهم بهذه اللغة، وأن الأمة لا يمكن أن تتواطأ على إخفاء شيء من الأخبار، ولو كان النحو مصنوعا لوصلتنا الأخبار بذلك، وأن القرآن الكريم الذي وصل إلينا متواترا بالرواية الشفوية الموثوق بها جيلا بعد جيل وصل معرباً؛ إذ لا يعقل أن يكون النبي ﷺ كان يقرأ القرآن ولا يحرك أواخر الكلمات، وأن اتفاق القراء واختلافهم في نطق الكلمات في الآيات دليل على وجود الإعراب، وأن الشعر العربي بموازينه وبحوره لا يقبل تلك الفكرة بحال من الأحوال... (انظر: فقه اللغة: مفهومه، موضوعاته، قضاياه، محمد إبراهيم الحمد، ص: ٤٣٧).

المستعمر؛ تمكيناً لسلطانهم، ولما حصل ذلك أو بعضه وأرادت الشعوب العودة للغتها لم تجد الطريق ممهدة لطول ما باعد المستشرقون والمستعمرون بين اللغة والشعب، فأخذ البعض يردد الشكوى من الفصحى وصعوبتها، وبدأت الدعوة لتيسيرها التي داخَلَها ما داخلَها!

وتجاوز الأجانب الحد ولم يكتفوا بالهجوم على الفصحى وإحلال العامية محلها، بل وصلت بهم الجرأة إلى أن دعوا لتبديل حروفها لطمس معالمها ودفنها للأبد!

أثار ذلك (ولهلم سبيتا) -السابق ذكره- سنة ١٨٨٠م في كتابه (قواعد اللغة العربية العامية في مصر) واقترح استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، ووضع طريقة لذلك، وتبعه أجانب آخرون بنفس الاقتراح.

واشتغل الباحثون من المصريين أواخر القرن التاسع عشر بمسألة تيسير الكتابة، بل اهتم مجمع اللغة العربية بالقاهرة بهذه المسألة أيضاً، ووضع سنة ١٩٤٤م جائزة قدرها ألف جنيه لأفضل اقتراح. وكان من ضمن اقتراحات أعضاء المجمع نفسه (وهم رجال الفكر وحماة العربية!) ما يلي:

استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، وهو اقتراح عبدالعزيز فهمي سنة ١٩٤٣م، ولم يكن أول من فكر بذلك، لكنه أول من اهتم به جدياً، واستهل عرض فكرته بالقسوة على الفصحى، فقال: (إننا من أتعس خلق الله في الحياة لأننا لم نعالج فعله أهل اللغات الغربية، وأننا مستكرَهون على أن تكون الفصحى لغة الكتابة عند الجميع، وهذا الاستكراه يوجب تعلم الفصحى، وهو في ذاته محنة وطغيان وبغي!) ثم هاجم النحو والكتابة والحركات، ثم اختتم ذلك بنعي اللغة وأهلها! وأورد لاقتراحه نماذج معززة له! ولكن المجمع انتقده وهاجمه بعنف!

واقتراح آخر قام به (أحمد لطفي السيد) -وهو من أقدم أعضاء المجمع- وذلك سنة ١٨٩٩م، فاقترح الدلالة بالحروف نيابة عن الحركات، فتدخل هذه الحروف في بنية الكلمة، فتُكتب مثلاً (ضَرَبَ) هكذا (ضَارَابَا)، و (سَعْدٌ) هكذا (ساعدون)! وكل ذلك بهدف تيسير الكتابة!

وقام (علي الجارم) سنة ١٩٤٤م باستعمال تشكيل جديد للدلالة على الحركات تكون متصلة بالكلمة ذاتها!

كما رأى عضو المجمع (أحمد أمين) تبسيط اللغة وإفساح المجال للكلمات الجديدة في المسميات التي نحن في حاجة لها، وإعدام القديم ليتسع للجديد مكان، فلو أبقينا القديم لتضخم متن

اللغة، واتهم العربية بالجمود وعلماءها بالتزمت، واقترح التخفيف من كثير من مفردات اللغة وإزالتها من المعاجم!

تأثير الدعوة من خلال انتشار المؤلفات المدونة بالعامية:

كانت المؤلفات المدونة بالعامية قبل الدعوة للعامية قليلة جداً باعتراف الأجانب الذين بثوا هذه الدعوة في دراساتهم للعامية المصرية، إذ أن (ولهلم سبيتا) وهو أول من وضع كتاباً شاملاً في قواعد العامية المصرية سنة ١٨٨٠م أشار في كتابه إلى أنه لم يجد من المؤلفات المدونة بالعامية سوى كتاب (هزّ القحوف) ومجلة (أبونظارة) وبعض المسرحيات المترجمة من الفرنسية، ولم يستفد من ذلك كثيراً، ولذلك صعُب عليه بحثه.

كما اشتكى (فولرس) و(ولمور) و(باول) من قلة المؤلفات العامية كذلك.

فلما انتشرت الدعوة للعامية بفضل الأجانب كثرت الكتب والمؤلفات والمجلات المدونة بالعامية في الثلث الأول من القرن العشرين -وقت احتدام المعركة بين الفصحى والعامية- .

ولم يقف تأثير الدعوة على الكتب والمجلات بل تجاوزها إلى المسرحيات، فكُتبت بالعامية، وكان (يعقوب بن صنّوع) مؤسس المسرح العربي في مصر المتوفى ١٩١٢م أول من كتب المسرحية بالعامية، وألف في سنتين (١٨٧٠-١٨٧٢م) اثنتين وثلاثين مسرحية لم يبق منها سوى واحدة.

ولقي مسرحه رواجاً كبيراً؛ كونه بدعة جديدة في ذلك الوقت، ولأنه كان يعالج بعض هموم المجتمع الاجتماعية والخلقية والسياسية، وقد حظي بتشجيع الخديوي إسماعيل، لكن هذا المسرح لم يعمّر طويلاً حيث تنكّر له الخديوي بسبب تعرض صنّوع للحكومة ونَقدِهِ لها، فأمر الخديوي بإغلاق مسرحه ثم نفيه من مصر!

ولم يكن صنّوع عاجزاً عن الكتابة بالفصحى، لكنه كان يكتب المسرحية بالعامية لتثقيف الشعب بكل ما يدور حوله؛ لأن الشعب كان يرزح حينها تحت وطأة الأمية.

وممن كتبوا المسرحية بالعامية (محمد عثمان جلال)، اتجه للعامية لضعفه بالفصحى كما قال بعض النقاد، وقال آخرون بل لكساد سوق الأدب الرفيع في تلك الفترة وإقبال الفرق التمثيلية على المسرحيات المكتوبة بالعامية، وتعصبه للعامية، وللنزول لمستوى الشعب حتى يؤثر فيهم، وقيل لموالاته للإنجليز الذين يروجون للغة الدراجة وقتها، وقيل غير ذلك.

ومنهم أيضاً (محمد تيمور) الذي تزعم حركة التمصير بعد محمد جلال، فاشتغل بتمصير المسرح المصري في حياته الأدبية، وألف ثلاث مسرحيات ومصّر واحدة عن الفرنسية. وقد آثر الكتابة بالعامية -رغم تأليفه بالفصحى- انتصاراً لتمصير الأدب، وادعاءً للواقعية، وانقياداً لرغبة الجمهور الذي لم يكن يستسيغ سوى النوع الهزلي العامي!

وكما طالت العامية الكتب والمجلات والمسرحيات طالت القصة أيضاً، والقصة بأصولها المعروفة اليوم عرفت عن طريق الاتصال بالغرب حقيقةً أو تأثراً، وممن تمكنوا من الاطلاع على النشاط الفكري الغربي وهم مقيمون في مصر (محمد حسين هيكل) الذي ألف قصته (زينب) سنة ١٩١٤م، و (محمود تيمور) -أخي محمد تيمور- الذي ألف أقاصيصه سنة ١٩٣٣م، و (توفيق الحكيم) الذي ألف في نفس السنة أيضاً.

وانتشرت كتابة القصص بالعامية في الثلث الأول من القرن العشرين ممن لم يتأهلوا لكتابة القصص أصلاً، ولكن راجت قصصهم حينها لأنهم وجدوا للعامية أنصاراً من رجال الفكر والثقافة، وتشجيعاً من رجال الصحافة، فما لهم لا يكتبون؟!

ومن القصص المدونة بالعامية التي انتشرت: (مذكرات عربجي، ومذكرات نشال، ومذكرات خالتي أم سيد)!

وكما نالت العامية من تلك الفنون فقد نالت من الزجل الذي كان بالفصحى ثم انحدر أواخر القرن التاسع عشر ليقترب من العامية، ثم رجحت كفة العامية عند من لم يكن همه سوى الإضحاك والهزل، أما من كان همه الإصلاح من خلال الزجل فقد بقيت كفته راجحة.

ونزل بعض الزجالين بالزجل حتى ضمّنوا زجلهم -إلى جانب كتابته بالعامية- كلمات وعبارات فرنسية أو إيطالية كتبوها بحروفها اللاتينية!

التجرِبة ترد للفصحى اعتبارها:

كانت العامية في مستهل القرن التاسع عشر تطغى على الأدب شعراً ونثراً بسبب الضعف الذي عانته البلاد في مختلف نواحيها السياسية والاجتماعية والثقافية في العصر العثماني، وظلت هكذا إلى منتصف ذلك القرن حتى قيض الله لها شعراء وكتابًا مجيدين، أمثال: البارودي ومحمد عبده، فنفضوا عنها غبار عصور الانحلال والتدهور.

ثم أخذت العامية تظهر في أوائل القرن العشرين كلغة مقصودة لذاتها، عندما انتشرت الدعوة إلى استخدامها أدبياً، فاقتحمت مختلف الفنون الأدبية فوجدت رواجاً ومقاومةً أيضاً.

فمثلاً كان الشعر في تدهور وانحطاط قبل (محمود سامي البارودي)، وتجد ذلك جلياً في منتصف القرن التاسع عشر، فتقرأ ديوان إسماعيل الخشاب وعائشة التيمورية فتجد مواضيع خاوية لا روح فيها قد صيغت بلغة ركيكة ومحسنات بديعية متكلَّفة، فلما جاء البارودي حطّم قيود الشعر التي كانت تكبّله، ومسح عنه غشاوته، ورده لمصادره الأولى حيث أزهى عصور الأدب، فملَكته وثقافته ومكانته التي مكّنته من اقتناء أمهات الكتب وكذا الاتصال بكبار اللغة والأدب كحسين المرصفي صرفتْه عن التكسب بشعره، واستطاع بفضل ذلك تغيير مجرى الشعر وإحياء التراث، فنهج نهج القدماء وأعاد هيبة الشعر.

وقد مهّد البارودي الطريق لمن جاء بعده (كأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، ومطران)، فبفضل البارودي وجهوده حافظ هؤلاء على المادة اللغوية، وإن جددوا وأبدعوا ولبّوا مطالب الجمهور السياسية والاجتماعية والدينية، وكل ذلك كان في حدود التمسك بالصياغة العربية الرائعة والمادة اللغوية القديمة، حتى إن حافظ إبراهيم -وهو أكثر الثلاثة نزولاً للشعب- لم يتبذّل ولم يسفّ بلغة شعرِه بل انتقى أفخم الألفاظ وأجزلها.

وهكذا استطاع الشعراء الثلاثة وشيخهم البارودي أن يثبتوا لنا أن لغتنا ليست جامدة ولا ضعيفة، بالرغم من استعمالهم العامية أحياناً نادرة، ولكنهم قصروها على أشعار الدعابة، وتحرّجوا من نشرها في دواوينهم، ولا يرونها جديرة بذلك.

وعاصر الشعراء الثلاثة معركة الفصحى والعامية، فوقفوا بجانب الفصحى، وقدّموا نتاجهم بالفصحى، وأحيوا قديمها وتصدوا لأعدائها، فنظم حافظ إبراهيم قصيدة على لسان العربية سنة ١٩٠٣م عقب الضجة التي أحدثها كتاب (ولمور) الذي حمل على العربية واتهمها بالضعف والعجز، فقال:

رموني بعقم في الشباب وليتني	عقمت فلم أجزع لقول عداتي
ولدت ولما لم أجد لعرائسي	رجالاً وأكفاءً وأدت بناتي
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية	وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة	وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن	فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

إلى آخرها...

وأشاد شوقي بالعروبة في أشعاره، وتغنى بالعربية لغة القرآن، وأثنى عليها كونها رابطة العرب وجامعة شملهم في مختلف الأقطار.

وشدد مطران -رغم انه أكثرهم تجديداً- على مراعاة أصول اللغة، وبيّن ثراءها في مفرداتها وآدابها وكفايتها للتعبير.

كانت تلك المدرسة التي جمعت الأدباء الثلاثة وشيخهم البارودي هي (مدرسة الإحياء أو البعث).

كما أن مدرسة التجديد أو تسمى مدرسة الديوان (مدرسة شكري والعقاد والمازني) التي نشأت في مصر بداية هذا القرن، وجمعت بين الثقافة العربية القديمة والآداب الأوروبية الحديثة (خاصة الإنجليزية)، رغم اختلافهم مع المدرسة السابقة في بناء القصيدة والقافية والدعوة للشعر المزدوج والمرسل، ودعوتهم إلى تيسير لغة الشعر والوضوح في انتقاء الألفاظ والاهتمام بروعة الصياغة ورصانتها- مع كل ذلك إلا أنهم يتفقون مع المدرسة الأولى على فصيح اللغة والتمسك بالأصول اللغوية.

ثم جاءت مدرسة (أبولو) التي أنشأها (أحمد زكي أبو شادي) سنة ١٩٣٢م، وغايتها الرقي بالشعر عامة، ولكن لم يكن لها هدف شعري محدد ولا مذهب أدبي معين، إذ تجد فيها نماذج متعددة الألوان والاتجاهات.

وكان أبو شادي يميل لتمصير اللغة وفرنجتها -على حد قوله-ولكن ديوانه (الشعلة) لا تكاد تجد فيه من القصائد التي عليها مسحة العامية سوى قصيدتين!

ولم يكن لمدرسة أبولو اتجاه معين، فبعضهم يحافظ على الإطار التقليدي وآخرون يميلون للسهولة التي أدت للتفكك والتردي في استخدام العامية، لا بقصد إشاعتها وإنما أتت من العجلة والجهل بالعربية -قواعدها وأساليبها- وقصور الجهد عن تحصيلها.

ويتضح من خلال مراحل الشعر الحديث أن لغته كانت وما زالت هي العربية الفصحى، ولم تجد العامية فيه رواجاً إلا نادراً؛ إما لضعف الفصحى في بعض العصور، أو للجهل بقواعدها وأصولها والضعف في تحصيلها، أو للرغبة في التفّكه والدعابة كما في شعر البارودي وحافظ، أو لمحاولة تمصيرها.

ولم تجد العامية رواجاً في الشعر لعراقته في تراثنا، ولأن شعراء الإحياء حاكوا القدماء فأثبتوا أن الفصحى غير قاصرة للتعبير عن حاجاتنا، كما لا يستعصي عليها قبول الجديد المستحدث الذي لم يعرفه الشعر القديم خاصة عندما أدخل (شوقي) الشعر التمثيلي، وأدخل (مطران) الشعر القصصي.

وأما القصة فعاد كتّابُها للفصحى بعد عدة تجارب أثبتت فشل العامية في استعمالها لغة لها، فـ(محمد حسين هيكل) مثلاً أعاد طباعة قصته (زينب) بالفصحى بعد أن نشرها بالعامية!

أما (توفيق الحكيم) في قصته (عودة الروح) التي كتبها ١٩٢٧م فقد اضطر في ثناياها لاستخدام الفصحى في بعض مواقف الحوار؛ فقد لمس عجز العامية عن التعبير عن الأفكار العالية، فكتب بالفصحى قصة أخرى هي (عصفور من الشرق) وهما تمثلان حياة المؤلف.

أما في الأقصوصة فنجد (محمود تيمور) اضطر في بعض أقاصيصه أن يطبعها من جديد مخلّصاً إياها ما استطاع من العامية بعد طبعتها الأولى، ثم التزم الفصحى في نهاية العقد الرابع من هذا القرن كما في مجموعته (شفاه غليظة وقصص أخرى) المنشورة سنة ١٩٦٤م، وله جهود خدمت الفصحى فلذلك اختير عضواً لمجمع اللغة.

وتحت سقف الأقصوصة أيضاً استخدم (المازني) العامية ولكن ليس في بداياته الأدبية، ولا يظهر أنه من دعاتها وليس ذلك معقولاً وهو ممن يدعو للوحدة العربية عن طريق الفصحى، خصوصاً أنه كان يرى تفاهة العامية وسخافة التعبير بها والثورة عليها كما في أقصوصته (طلعة عيد)، أما استخدامه للعامية فقد يكون للتقريب بينها وبين الفصحى، أو لإضفاء لون من الواقعية على أقاصيصه، لكن جهوده للفصحى شعراً ونثراً لا تنكر؛ ولذلك اختير عضواً في المجمع أيضاً.

وكذلك فن المقالة، لم تسلم من العامية، رغم تمكن كُتّابها من الفصحى، فاستخدموها رغبة في تثقيف العامة وإطلاعهم على أحوال البلاد، أو استخدموها استجابةً لدعاة العامية فرغبوا في الشهرة. لكننا اليوم بعد أن اختفت دواعي الكتابة بالعامية كالاستعمار والحركات القومية، وبعد انتشار التعليم؛ أخذ أسلوب المقالة في ارتفاع ورقي، وإن كان استعمال العامية فيها لم ينته تماماً.

وختاماً نجد أن ثمة أمرين مهمين جعلا الفصحى تعود لمكانتها السامية الأصيلة المستحقة، هما: التجربة، وانتشار التعليم.

وأما دارس العربية فينبغي أن يعلم أن كل لغة لا تخلو من صعوبات، ولكن بالتكرار والمران والاطلاع تتذلل له السبل ويصبح جزءًا من كيان اللغة.

والعربية الفصحى ليست بتلك الصعوبة المزعومة، بدليل أن بعض علمائها وأدبائها القدماء نبغوا فيها في سن مبكرة، وأما في العصر الحديث فهناك أدباء اعتمدوا على أنفسهم في تحصيلها والتفوق فيها، مثل:

البارودي، مؤسس النهضة الشعرية الحديثة في العالم العربي كله، فإنه لم يدرس العربية في المدارس النظامية، بل درس مبادئها في منزله، ثم اعتمد على نفسه بكثرة الاطلاع والاتصال بعلماء اللغة والأدب في عصره.

والعقاد، الشاعر الكاتب الناقد المؤرخ المترجم، لم ينل من الشهادات سوى شهادة الابتدائية، ثم اعتمد على نفسه بالقراءة والاطلاع حتى ترك للمكتبة العربية ما يقرب من مئة كتاب!

يقول الثعالبي -أحد أئمة اللغة- في كتابه (فقه اللغة): "إن من أحب الله أحب رسوله ﷺ، ومن أحب الرسول العربي ﷺ أحب العرب، ومن أحب العرب أحب اللغة العربية التي بها أنزل الله أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عُني بها، وثابر عليها، وصرف همّته إليها".

تم بحمد الله